20120929_0001-L

رسالة الى زوجي المخطوف

ثلاثون عاماً لم أرك حتى في المنام

ككل أيلول، أجدني أكثر التصاقاً بنفسي، منكفئة عن الناس، بعيدة مما يجري. أراني في خلوة يؤانس وحدتها حوار من دون أي استدعاء أو تدخّل مني.. مواضيع عديدة تُطرح، أفكار تتقاطع وتتباين، مشاعر كثيفة، متضاربة تتناوب. لكن كل شيء يجري بانتظام كأن هناك مديراً خفياً للجلسات.

أيلول غني بالوقائع والمفارقات بعضها عام وبعضها خاص. بعضها مفرح وبعضها مأساوي. بالنسبة إليّ بات هذا الشهر يحمل خصوصية ما. صار لي «أيلولي». تحوّل إلى محطة سنوية لإجراء جردة الحياة. أصبح بمثابة موعد ثابت لآلام تشبه المخاض.

من أين أبدأ، من الأفراح أم الأتراح؟ أكيد، سأبدأ بفرحي بزياد. لقد عايدتُ البارحة رجلاً في السادسة والثلاثين. طال العناق وأنا أستعيد ملامح الطفل، التي ارتسمت أمامي لحظة الولادة، إنه ابننا البكر الذي أهدانا و«ملكته» حفيدين أعادا إليّ الفرح بعدما حسبته قد غادر مثلك ولم يعد.

مهلاً عدنان، هل انتبهتَ أن زيادنا، أصبح اليوم بعمرك يوم خُطِفتَ من حياتك وحياتنا؟

عذراً زياد، لم أشأ المقارنة، حضرتْ من تلقاء ذاتها. أذكر أني وعدنان عايدناك ذاك العام (١٩٨٢) وحدنا، وكان رابعنا غسان. أطفأتَ الشمعات الست على وقع أصوات «مش ولا بدّ» تصدح بثلاث لغات: «سنة حلوة يا جميل». وعلى وعد بتأجيل الاحتفال الحقيقي أسبوعاً، بسبب تعقيدات ما أكثرها آنذاك. أنت قبلتَ من دون ضغط منّا أو إكراه. نحن، لم يخطر في بالنا أن يُقتل رئيس الجمهورية بعد ظهر ذلك اليوم، أن يذبح الناس كنعاج، ولا أن يعقب الاحتفالَ المؤجّلَ جريمةُ الخطف.

زياد، على أمل أن تعطيك الحياة خيراً وأحلى ما عندها. ليس تكفيراً عن أذيّة لا تغتفر أو تعويض خسارة لا تثمّن. إنك تستحق يا عمري.

مهما حاولت اختراع الفرح، تبقى رائحة الدم، الموت، هي الطاغية. تملأ المطارح والأنفاس.

كأنّ القتلى يتكلمون. كأن لهم لغتهم الخاصة، الجثث ترسل شارات في ما بينها، تحاكي بعضها، تخبر تفاصيل ما تعرّضت له من صنوف التعذيب والمهانة، قبل أن تلفظ آخر أنفاسها. تندهش من شدة الشبه بين سفّاحيها. كأنهم واحد مهما تعدّدت الهويات، الجنسيات والأهداف.

ها هي الأجساد المشلّعة في شوارع المدن السورية وأزقتها تتمدد، تمدّ أصابعها، توقظ أشلاء من سكنوا بيروت ذات يوم في شبه بيوت. بيوت بُنيت كيفما كان بصفة المعجّل المؤقّت. ولم تقوَ سوى المجازر على إزالة تلك الصفة.

حسناً فعلنا، عدنان، أننا لم نقطع وعداً آنذاك لأطفال صبرا وشاتيلا بأنهم سيكونون آخر من ترتكب بحقهم مجازر. وإلاّ كنّا اليوم في مأزق موجع، لا نعرف أين نخبئ عيوننا من نظرات أطفال غزّة، داريا، إدلب، حلب و...الخ.

ليت للجلادين لغتهم. ربما عندها ينمو بصيص أمل بأن يتعب يوماً هؤلاء، أن تسقط السكاكين من أكفّهم. ربما يأتي يوم يراجعون فيه ما ارتكبوا في ظل الغياب المزمن للمحاسبة، والموت السريري للمسؤولين عن إجرائها.

في أيلول يختلط فرحي الكبير في ذكرى انطلاقة «جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية» للعدو بحزن معتّق يعصرني جراء تزامن ذلك الحدث مع رحيلك. الفرح يكبر بالتحرير العام ٢٠٠٠ وبالانتصار العام ٢٠٠٦. لكن ما أصعب حالة لا أعرف أن أفرح فيها ولا أن أحزن..أحار في أي حال أنا.

لكن هذه الانجازات المضيئة بدأت تبهت. بات أثرها شبه غائب عن السياسة الرسمية، بالكاد تجد حيزاً لها في نشرات الأخبار وصفحات الجرائد. لم يعد «عيد التحرير» يعني لدى الغالبية سوى يوم تعطيل عن العمل. بات بقاؤه أو إلغاؤه رهن أمزجة الحكام واصطفافاتهم في الموالاة أو في المعارضة. حظّك نصيبك. ونحن أيضاً كان لنا نصيب ومجزرة.

يوم خُطفت، لم يخطر في بالي ولا في بالك أن يدوم ذلك أكثر من ساعتين أو ثلاث. عندما حلّ الليل، ظننتُ أن احتجازك قد يطول يوماً أو يومين. كلانا، ورفاقك في المنظمة على ما أعتقد، اعتبرنا أن ذلك الإجراء كان بمثابة إعلان عن قيامة الدولة بعد طول غياب فرضته الحروب المتعددة الأوصاف والهويات. كان بمثابة تأكيد منها على العودة لممارسة دورها، لتأديب من تعدّى على صلاحياتها. أنت كنت من ذلك الفريق المشاغب. كثيرون يشهدون، وأنا من بينهم، أنك كنت من أوائل المبادرين إلى تنظيم حياة الناس في بيروت خلال يوميات الاقتتال الداخلي، إلى تعزيز صمودهم خلال الاجتياح الإسرائيلي. انشغلتَ لتأمين حمايتهم من نيران القذائف المجنونة. حاولتَ مساعدتهم للحصول على الماء والغذاء والدواء. سعيتَ لضمان استمرار المستشفيات في استقبال الجرحى والمصابين. أطلقتَ النداء تلو الآخر لالتحاق الموظفين بمراكز أعمالهم في كل مرة ضجر خلالها السلاح والمسلحون أو استراحوا في فيء هدنة تفاوضية مشبوهة الدوافع. حثثت التلامذة كما أهاليهم وأساتذتهم، على العودة إلى المدارس مهما كانت فسحات توقّف المعارك قصيرة. فالقلم أخفّ حملاً من السلاح، أقل خطراً بما لا يقاس.

ثلاثون عاماً وأنت مجهول الإقامة والمصير. ثلاثون عاماً لم أرك حتى في المنام، لا أعرف عنك شيئاً، لم أسمع منك خبراً، لم تصلني إلا تلك الإشارة البتيمة خلال الأشهر الأولى لمغادرتك.

أنا لم أبخل عليك يوما، كنت أحاول وما أزال أنقل إليك كل تفصيل أعتبره يهمّك.

أخبرتك عن ولدينا اللذين صارا أربعة بفعل الحب.

زياد نقل عداوك إلى رينه، التي سرعان ما بنت علاقة ودّ معك عن بعد. لكنه لا يزال يرتبك كلما حاول السؤال، الاطمئنان عني معك. وكأن الحرص الذي مارسه ابن الست سنوات اثر اختطافك، بهدف حمايتي، ما تزال مفاعيله سارية، وللحديث تتمة.

غسان الحاضر وإن غاب، القريب وإن ابتعد، أتعلّم منه الكثير من دون علمه. نسج علاقة خاصة بك. أتماهى مع أفكار في رأسه – بداية أظنها موغلة في الخيال – لاحقاً تدهشني تجلياتها على أرض الواقع. أغبطه محلّقاً في فضاء حب جنب «حبيبة» كأنهما تعلّما الطيران معاً. يحميها وتحميه. يلوّنان لوحة لافتة بفرادتها. ما أحلاه وأحلاها.

حدّثتك عن أم عدنان التي زيّنت صورتها أخيراً القاعة الزجاجية في وزارة السياحة وهي تروي للصليب الأحمر الدولي سيرتك معها.

نقلتُ إليك خبريات أبو عدنان، الذي رحل عن الحياة غصباً عنه، وقد وعد نفسه بلقائك قبل أن تدقّ ساعته. لكن موته كان قسراً كاختفائك.

عرّفتك على عشرات الأبناء والبنات الذين أتى بهم إخوتك إلى الدنيا، كبروا وكبر معهم السؤال. لكن لم يأتهم جواب، لا عن عمّ ولا عن خال.

نسيتُ أن أخبرك عن أمي وعلاقتها السرّية بك. للأسف، لم أكتشف ذلك إلاّ بعد رحيلها. كنتُ «أفلفش» أغراضها الخاصة في لحظة شوق شديد، عثرتُ على قصاصات جرائد قديمة مطوية بتأن، استغربتُ الأمر وأنا لم أرَ أمي يوماً تتصفّح جريدة. زادت دهشتي عندما فتحتُ تلك الأوراق لأجد أنها تتعلّق بتحرك لأهالي المخطوفين وتظهر صورتي في إحداها. لا أدري لِمَ أخفت أمي اهتمامها بالموضوع. علماً أنها لم تكن تبدي أمامي سوى استياء، قلق وتمنٍ بالتوقف عن التحرك والاهتمام بصحتي وبأولادي، باعتبار أن ما قمتَ به كاف وزيادة فلأتطلّع إلى الحياة، إلى المستقبل. تماماً كما طلب مني مرة رئيس لمجلس الوزراء اثر لقاء به. شتّان بين الغايتين. رحلت أمي منذ خمس سنوات. ما أصعب فراق الأم. لكنها تركت لنا عنوان إقامتها الجديد. أقصدها كلما ناداني الشوق إليها، كلما شدّتني الحاجة إلى حضنها.

لم أكن أحسب أن غيابك سيمتد ثلاثة عقود. ما أصعب فراق الحبيب. لاسيما إذا اقتيد صوب المجهول. لم أكن أحسب أني سأتعرّف إلى رفاق ورفيقات جدد في مسيرة الحياة المستجدّة من دونك. لا أدري عدنان إذا كنتَ أو كانت شوارع بيروت قد أحصت عدد التظاهرات والاعتصامات التي قمنا بها. إذا كانت نقابة الصحافة قد سجّلت عدد اللقاءات والمؤتمرات التي عقدنا على منبرها. إذا كانت عدسات المصوّرين وأقلام الصحافيين قد تعبت من تغطية أخبارنا. إذا كان الناس قد ملّوا سماع صرخاتنا. إذا كانت المقار الرئاسية الرسمية وقاطنوها ستستمر إلى الأبد في إقفال أبوابها وآذانها بوجوهنا.

أعرف أن ما حققّناه حتى الآن مهم جداً. ولو أننا لم نستطع إعادتكم. لكننا كالنمل الذي يحفر في الصخر، استطعنا، بشقّ النفس، مراكمة بضع نقاط ضوء صغيرة في عتمة ليل قطبي حالك، لا مجال لتعدادها الآن.

أكتفي بذكر أمر واحد جاء ثمرة نضالنا، صبرنا ومثابرتنا على مدار هذه السنوات. انه مشروع يرسم خريطة الطريق التي نتوخى أن توصل إليكم. أينما كنتم، في أي حال صرتم.

المشروع مشروعنا، والمعركة معركتنا.

عدنان، اليوم سأجيب على سؤالك الدائم «إلى متى؟». أعدك بالتنحّي عن مسؤولية قيادة لجنة الأهالي في اللحظة التي يضع فيها هذا المشروع رجليه على «السكة». هلاّ أعطيتني مهلة أخيرة لذلك. ليتك تُعلِم رفاق الغيب (معك) بالأمر.

مَن يدري، ربما ربيع لبنان سيبدأ من هنا. من مشروع قانون كتبنا أحكامه بحبر معاناتكم، بحرقة انتظارنا وأسئلة أولادنا، كتبناه لأجلكم ولأجلنا، «لأجل لبنان».

عدنان، سأتوقف عن الكتابة. أود أن أدندن مع فيروز «ورقو الأصفر شهر أيلول ذكّرني فيك». أعتقد أنها غنّت هذه الأغنية خصيصاً لي. وحدها، يحق لها الاعتراض على هذا الادعاء.

عن جدّ عدنان، شتي أيلول بيشبه عينيك.

وداد حلواني

* عدنان حلواني واحد من بين ١٧ ألف مخطوف ومفقود مازالت مصائرهم مجهولة، خطف في ٢٤ أيلول ١٩٨٢.